

المصدر: العالم اليوم

التاريخ: ٤ مايو ١٩٩٢

حرب الكويت والنظام العالمي الجديد

مجدي عمر

من مراسم.. وإشهار لتأكيد قيامها بدورها الجديد كقوة عظمى وحيدة.. ويكفل استمرارها لأطول فترة ممكنة في مواجهة القوتين الاقتصاديتين المتصاعدتين: اليابان وأوروبا الموحدة.. وكان احتلال العراق للكويت والموقف المتفجر في الخليج مناسبا تماما لهذه المراسم خاصة وأنه في منطقة تضم حوالى ثلثى الاحتياطي العالمي للبترو.. أهم مصادر الطاقة وعصب الصناعة والمواصلات.. ولعلنا الآن نقرب من السؤال الكبير.. ماذا أرادت واشنطن من حرب تحرير الكويت.. ومن إخراج السيناريو بهذا الشكل والحجم؟ وتعود بنا الذاكرة إلى نهايات الحرب العالمية الثانية.. وبعد استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب في أوروبا.. وكانت بوادر هزيمة اليابان العسكرية واضحة.. وكان إعلان انتصار الولايات المتحدة وانتهاء الحرب في الشرق الأقصى مسألة وقت.. ثم فوجيء العالم بإلقاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما.. ثم تبعها قنبلة أخرى على نجازاكي.. فهل كان من الضروري من الناحية العسكرية قصف هاتين المدينتين بالقنبلة الذرية.. الكثير من الاستراتيجيين والعسكريين يقولون لا.. والأمريكيون يقولون إنه كان ضروريا لردع المقاومة اليابانية العنيفة المتوقعة أثناء تقدم القوات الأمريكية لاحتلال اليابان.. وسواء كان هذا أو ذاك فالموكد أن استخدام القنبلة الذرية كان له دور عنيف من الناحية السياسية وكان رسالة واضحة للسوفييت والأوروبيين.. رسالة للعلاقات السوفييتية المتحفزة والذي التهم دول شرق أوروبا بعد أن حررها من الألمان.. بأن يلتزم فقط بما اتفق عليه في مؤتمر يالتا وبوتسدام دون مغالاة.. ورسالة للأصدقاء في أوروبا، والذين كانت تقلقهم شهية الاتحاد السوفييتي المفتوحة بأن المظلة الأمريكية قادرة على حمايتهم.. وللحق فقد كان استخدام السلاح الذري لأول مرة في التاريخ يعني الكثير في العكر الاستراتيجي العسكري أولا: أن العالم قد دخل مرحلة الاستراتيجية النووية. ثانياً: أن التوازن العسكري قد مال بشدة لصالح واشنطن.

ثالثاً: أن تملك واشنطن وحدها.. حتى هذا الوقت على الأقل.. سلاح ردع نووي تم استخدامه ميدانياً وحسم الحرب.. وبديهي أن هذا ماكان ليتحقق بنفس الوضوح لو أعلنت واشنطن أنها قد أجرت تجربة ذرية ناجحة في صحراء نيفاذا.

وهكذا كان الدور الهائل لقنبليتي هيروشيما ونجازاكي بمثابة إشهار وإعلام لدور الولايات المتحدة كأول القوتين العظميين في العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

كانت دورة الألعاب الأولمبية التي أقيمت في لوس أنجلوس منذ عدة سنوات أول دورة رياضية تحقق عائداً مادياً صافياً قدر آنذاك بعشرات الملايين من الدولارات.. فضلاً عن المكاسب الدعائية والسياحية والإعلامية والمعنوية التي تحققها الدول التي تنال شرف تنظيم مثل هذه الدورات وتنفق في سبيل ذلك مبالغ طائلة.. ذلك أن بلدية لوس أنجلوس نجحت في تسويق الدورة من الناحية التجارية بشكل لم يسبق له مثيل.. وكما نجحت لوس أنجلوس في تسويق دورة ألعاب نجحت واشنطن في تسويق حرب.. حرب الخليج الثانية أو حرب تحرير الكويت.

ورغم كل المؤتمرات والاتصالات والوساطات الدولية فقد كان التسويق للحرب على قدم وساق.. وساهمت الميديا الأمريكية بإمكاناتها في تسويق الحرب حتى خلقت رأياً عاماً دولياً يوافق على الحرب كامر لا مناص منه وساعد التعنت العراقي.. والتعزق العربي على ذلك.. وتم التسويق على مختلف المستويات.. صناعي القرار.. رجال الأعمال.. السياسيين.. العسكريين.. مسئولى الإعلام.. بل والمواطن البسيط في أرجاء المعمورة والذي كان يتابع تطورات الأزمة بواسطة الـ C.N.N. أو الشبكات المحلية والتي كانت تنقل عنها بعد أن تفرغت هذه الشبكة تماماً للأزمة.. تنقل أخبارها من مختلف العواصم.. بل ومن بغداد نفسها.. وأصبحت الحرب هي الخيار الوحيد.. وهو بالصعب ماكانت تريد واشنطن.. فلماذا؟

لقد كان العالم.. وحتى نهايات الثمانينات يعيش في ظل الأوضاع التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية.. والترتيبات التي اتفق عليها المنتصرون في طهران ويالتا وبوتسدام.. حيث أعيد رسم الحدود في أوروبا.. ووزعت مناطق النفوذ في العالم بين القطبين الجديدين واشنطن وموسكو.. يتركز كل منهما على عقيدة اقتصادية.. ويقود كل منهما تكتلا سياسيا وحلفا عسكريا.. وبدأت الحرب الباردة.. واستمر الصراع بين العملاقين واتخذ صورا متعددة لم تصل أبداً إلى الحرب الساخنة.. ولو أنها حاربا بالوكالة في مناطق من العالم.. وتطورت الاستراتيجية من التقليدية إلى الذرية إلى النووية.. إلا عناصر الردع.. والردع المتبادل حافظت على التوازن العسكري الذي منع قيام حرب مدمرة خاصة بعد تطوير الأسلحة النووية ونظم الصواريخ العابرة القارات والمتوسطة والتكتيكية.. ثم بدأت عوامل التفكك في الكتلة الشرقية بعد الإزهاصات التي ظهرت في بولندا.. ورومانيا.. والمجر.. وامتد التفكك إلى الاتحاد السوفييتي نفسه.. وبدأ واضحاً أن إحدى القوتين العظميين قد دب فيها الوهن تحت ضغط المسئوليات الاقتصادية.. وبدأ واضحاً أن العالم يدخل عصرًا جديداً تتبنا على قمته قوة عظمى وحيدة.. وظهر تعبير النظام العالمي الجديد.. وحتى تمارس واشنطن دورها الجديد فلا بد

حامساً: كان العراق محروماً من أي موارد مالية بعد قرارات الحظر وتجميد الأرصدة ومنع تصدير البترول ومع هذا ظل يستورد احتياجاته بما في ذلك إعاشة قواته تحت السلاح ووسائل التهريب أي بأضعاف قيمتها ومن خلال دول لا يمكنها اقتصادياً مساعدته أو إقراضه لمدة تزيد على ستة أشهر فكيف؟ وهل وجدت في بنوك الكويت مبالغ سائلة تكفي لإطعام شعب العراق كل هذه المدة؟

وبعد... فهل حققت واشنطن أهدافها من الحرب.. نعم فقد حققت الكثير وكّله في إطار تثبيت دعائم النظام العالمي الجديد.

أولاً: الممارسة الفعلية لمسؤوليات القوة العظمى الوحيدة في إدارة أزمة عالمية تتطور إلى أقصى مدى وهو استخدام القوة العسكرية.. مع تجربة كل الأسس المستحصدة في إدارة الأزمات.. نقل القوات.. التشوين للعمليات.. استخدام الأسلحة الحديثة: مثل صواريخ باتريوت.. وطائرة الشبح.. إدارة معركة أسلحة مشتركة في منطقة حساسة من العالم.

ثانياً: التأكيد العمل على غياب موسكو في أخطر مشكلة دولية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.. وإظهار ذلك علناً أمام دول العالم الثالث التي كانت تبني مواقفها معتمدة على دعم الاتحاد السوفييتي.

ثالثاً: تحسس أحجام وقدرات الدول الصديقة والحليفة وقدراتها ومساهماتها في مواجهة الأزمات.

رابعاً: ترويض الأصدقاء وخاصة اليابان وأوروبا.. وإقناعهم أن قدراتهم الاقتصادية وصناعاتهم الهائلة لا يمكن استمرارها دون ضمان تدفق بترول الخليج أكبر احتياطي بترول في العالم.. والذي تقوم واشنطن بتأمينه بشكل مباشر وهو أمر له مقابل.

خامساً: رده أي قوة إقليمية تحاول تجاوز حجمها أو قدراتها أو الدور المسموح لها به في النظام الجديد.. أو أي من زعماء العالم الثالث يلحظ أن يلعب خارج الحدود أو يفتح مشاكل إقليمية غير مطلوبة.

سادساً: السيطرة على أسلحة الدمار الشامل.. ووضع حد لمحاولات الدول الصغيرة لتطويع قدراتها في هذا المجال.. خاصة أن في السوق علماء سوفييتيين من حول الكيوبنتول الجديد متاحين لمن لديه المال.

سابعاً: تخليص الشعب الأمريكي من عقدة فيتنام.. حيث فقد ٥٨ ألف قتيل دون تحقيق نصر.. مع إرجاع هذا الفضل للإدارة الأمريكية الحالية.. والحزب الجمهوري.

ثامناً: تصريف مخزون رايكد من السلاح والذخيرة والمعدات بقدر إمكانيات الدولارات.

ولا بد من الاعتراف بأن الأزمة أديرت باقتدار.. ولا يعني هذا عدم حدوث أخطاء.. بل حدثت أخطاء تكتيكية هنا وهناك ولكن بفضل مرونة الخطة العامة.. وبقية نظم الاتصالات والسيطرة أمكن المحافظة على الهدف الاستراتيجي.

النظام العالمي الجديد ترأسه الولايات المتحدة.. ولكنها لا تستطيع أن تديره وحدها.. واشنطن تدرك أن هناك أبواباً ومسؤوليات إقليمية لكل بقدر حجمه وقلته وقدرته على التأثير.. وستظل واشنطن متربعة على رأس التنظيم لفترة زمنية قد لا تطول كثيراً.. وهي لم تستطع أن تحتفظ باحتكار السلاح النووي إلا لسنوات معدودة ثم لحقت بها موسكو.. ثم بريطانيا وفرنسا.. بل ودول أخرى مثل الصين والهند.

والأرجح أننا سنبصرنا إلى نظام متعدد القوى.. وفي الأفق قوتان على الأقل مؤهلتان لذلك هما اليابان بقوة اقتصادية هائلة.. وتقوى تكنولوجيا.. وإدارة متميزة وأوروبا الموحدة التي تضم أربع دول من الدول السبع للصناعة الكبرى.. وسيستمر الصراع وإن اختلفت أشكاله طبيعة البشر والأمم والشعوب أن تتنافس وتتصارع وتتعارض مصالحهم.. وتنطلق منهم الطاقات والقدرة للتطوير والإبداع.. وصديق الله العظيم.. إذ قال في قرانه العزيز: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين.. سورة البقرة - الآية ٢٥٠.

فهل كانت حرب الكويت هي الحرب العالمية الثالثة؟.. إنني أميل لهذا الوصف.

- فماداً نسمى حرباً اشتركت فيها قوات من ٢٤ دولة من الفارات الخمس.. وبصرف النار عن حجم اشتراك كل منها؟

- وماداً نسمى حرباً شغلت العالم كله عما عداها خلال فترة الإعداد.. للعمليات.. ثم الحرب نفسها.. رغم محدودية مسرح العمليات؟

- وماداً نسمى حرباً تنابت الأحداث من بعدها لتغير من شكل العالم واستراتيجيات الدول والقوى؟.. ما نهارت عقائد وتعككت ككل ودول ونظم.

إننا لانعنى بالطبع أن النظام العالمي الجديد كان نتيجة لحرب الكويت.. فقد بدأت إرهاباته قبلها واستمرت أحداثها بعدها ولكن دور المدافع في هذه الحرب كان أشبه بالدقات التي تسبق فتح الستار.. وكان انتهاء الحرب بمثابة إزاحة الستار عن المسرح العالمي مجهزاً بديكورات النظام الجديد وجاهزاً لحلبة جديدة يتول فيها المنتصر الأساسي مسؤولياته كقوة عظمى وحيدة.

ولاننسى أنه في إطار التسويق الجيد للحرب.. فقد أتيح للمواطن العادي البسيط أن يتابع الأزمة على شاشات التلفزيون.. فجدبت الشاشة الصغيرة مئات الملايين من المشاهدين.. تابعوا احتلال الكويت.. وشاهدوا الدمار والاضحايا.. وشاهدوا الرئيس العراقي ومساعديه.. وتحوّل الكاميرات بين العواصم المعنية بالأزمة وفي ردهات الأمم المتحدة وتعايش الناس مع الشخصيات ذات التأثير.. وشاهدوا الاتصالات والمقابلات والاجتماعات والمؤتمرات الصحفية.. وحلوا الابتسام والإيماءة والإشارة.. وتابعوا القلق على الوجوه.. والتوتر والانفعال.. وكان تناول هذه الجوانب الإنسانية مثيراً.. ولكنه بالتأكيد كان نجاحاً لحملة التسويق البارعة للأزمة ثم للحرب.. ثم تحولت الكاميرات بين الوحدات العسكرية خلال فترة الإعداد.. ثم تابعت العمليات الجوية ثم البرية والمؤتمرات الصحفية اليومية للقادة.. بل إن الملايين شاهدوا على الشاشة الصغيرة لحظة اندلاع الحرب.. إلى أن تم تحرير الكويت.. لتتميز هذه الحرب بمتابعة جماهيرية ميدانية غير مسبقة.. وانتهت الحرب بالتفزيونية وبدأت إجراءات تدمير الصواريخ والأسلحة الكيميائية ومشروعات العراق الطموحة لتدمير قدراته النووية تحت إشراف أطعم من الأمم المتحدة.. ومن الضروري أن نلغث النظر إلى بعض الملاحظات التي صاحبت الأزمة والحرب.. لعل التاريخ يفصح عن تفسير لها.

أولاً: لم تبدأ العملية العسكرية إلا بعد صدور قرارات عديدة من مجلس الأمن عبرت عن الإرادة الدولية في تحرير الكويت بكل الوسائل المتاحة.. مما يعني استخدام القوة العسكرية لو اقتضى الأمر.. ولكن هذه العملية لم تتم تحت علم الأمم المتحدة وكما تم في كورياء ولكن تحت إعلام الدول المشتركة يعلها جميعاً العلم الأمريكي.

ثانياً: في الوقت الذي رفضت فيه بغداد وبإصرار كل محاولة لتفادي الحرب فإنها قبيل العمليات سحبتي القوة الضاربة المعلقة في الحرس الجمهوري المشكل من ٦ فرق من المواجهة.. واستبدلتها بقوات أقرب ما تكون إلى الميليشيات.. وبالتالي خرجت القوة الضاربة للجيش العراقي شبه سليمة.

ثالثاً: أوقفت العمليات العسكرية في توقيت سمح للنظام العراقي بالتقاط أنفاسه وضرب الانتفاضات الانفصالية في الشمال والجنوب والسيطرة على الأوضاع في البلاد.

رابعاً: منعت بغداد معظم المراسلين الأجانب من إرسال أخبارهم للخارج إلى أن مراسلي شبكة الـ C.N.N. ظلوا يبتون من بغداد حتى بعد بدء العمليات.